بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

استقر فى أذهان جميع الشعوب والأمم أنهم خلقوا من أب واحد هو آدم ، وأم واحدة هى حواء ، وكان سبب هذا الإجماع راجعاً إلى ورود قصة الخلق فى تراث كل الشعوب ، على اختلافها فى نوعية الثقافة ودرجة التحضر ، حتى أصبحت من المسلمات الفكرية ، والمعتقدات الراسخة ، سواء كان ذلك قائماً على أساس " فولكورى " ، أو معتمداً على مسلمات اجتماعية ، أو مبادئ دينية ؛ فقصة بدء الخلق وردت فى التراث الشعبى ، وسجلت فى النصوص الدينية المقدسة على اختلاف فى التفصيل والإيجاز ، وتفاوت فى تحديد اسم الإنسان الأول ورفيقته ، أو إغفال اسم أى منهما . وكان من مقتضيات الاشتراك فى مصدر الخلق أن يشترك الناس جميعاً فى الصفات والعادات والتقاليد ، فتتوحد أفكارهم وميولهم ، ويتشابه سلوكهم، فلا تنافر فى نشاطهم ، ولا تعاض فى نظرتهم للحياة ، بل تناغم وانسجام ، وتوافق ووئام .

لكن الواقع يناقض ذلك ، فمن اختلاف فى الأشكال والهيئات ، إلى تعارض فى الأفكار والميول ، ومن تناقض فى المشارب والاتجاهات إلى تناحر فى الغرائز والممتلكات ، حتى أصبح من النادر جداً – بل يكاد يكون من المستحيل – أن يتفق اثنان اتفاقاً كاملا فى أى صفة من صفات الإنسان ، فضلا عن اتفاق الشعوب والجماعات ؛ فاختلاف الناس وتباينهم لازم من لوازم الحياة الإنسانية ، بل إنه – كما يذهب بعض العلماء – ضرورى فى الأشكال والهيئات ، حتى لا تضطرب الحياة ، إذ لو خلق الناس جميعاً نسخة واحدة فى الصورة والملامح لأصبح التمييز بين شخص وآخر عسيراً ، فتضيع الحقوق ، وتختلط المصالح ، مما يُحَوِّل الحياة إلى فوضى لا ضابط لها ، ويغرقها فى غياهب من الظلمات الحالكة ، حيث لا شعاع يحدد معالمها ، ولا ذرة من نور تقود مسيرتها ، ويمكن أن تتصور ارتباك الحياة واختلاط الأمور لو خُلِقَ الناس جميعاً نسخة واحدة ، عندما تمعن التفكير فى الطريق التى يمكنك فى هذه الحالة أن تعرف زوجتك من الأخريات أو تتعرف على أصحابك وأصدقائك ومن يتعاملون معك فى جميع نواحى الحياة ..... هيهات ! بل إن ذلك من المستحيل ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . . . ﴾
[سورة الحجرات : ١٣]

أى خلقكم مختلفين فى الهيئة والصورة واللون ، وجعلكم متباينين فى الأعراق والأجناس ، ليعرف كلٌّ منكم الآخر بما تميز به فى شكله وصورته وهيئته ، وبما اختلف به عنه فى لونه ، وجنسه ، وشعبه .

كذلك كان الاختلاف فى الأفكار والرؤى ضرورياً ؛ فلو اتفق الناس فى تصوراتهم للحياة ، وتطابقت أفكارهم فى التعامل مع الطبيعة ، واتحدت رؤاهم حول أسلوب واحد فى مجال النشاط الإنسانى ، لجمدت الحياة عند مستوى الصورة الأولى لحياة الإنسان على هذه الأرض ، ولظل الإنسان هائماً على وجهه فى الغابات والوديان ، يأكل من الأشجار ، ويشرب من مجارى المياه ، ويحيى على ما تجود به الطبيعة من تلقاء نفسها عليه ، فلا تغيير ولا ابتكار ، بل انكماش وتقوقع ، لأن شرارة الابتكار تنبعث من احتكاك الأفكار المختلفة ، ويأخذ التغيير طريقه فى حياة الإنسان من ثنايا التنوع فى الأفكار والرؤى ، وتبنى الحضارات من رحم تصارع الآراء ، فلا حضارة لقوم ظنوا أن الاتفاق واجب مقدس ، أو اعتقدوا أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فطفقوا يحاربون أصحاب الأفكار الجديدة ، ويتعقبون كل من ينادى بالابتكار والتغيير .

ظاهرتان أساسيتان فى انتظام الحياة الإنسانية وتجددها :

الأولى : تباين الناس فى أشكالهم وصورهم ، – حتى لا يختلط الحابل بالنابل – ، فيعرف كل واحد قرينه وصديقه ، ومن يتعامل معهم ، ويميزهم عن غيرهم ، فتستوى الأمور ، وتحدد مصادر الواجبات والالتزامات ، ويُعْرَف كلٌّ بصفاته وملامحه ، فينضبط وقع الحياة ، وتنتظم نغماتها .

الثانية : اختلاف فى القدرات الذهنية والملكات الفكرية ، حتى لا يصبح الناس صورة مكررة فى مجال الفكر والنظر ، تؤدى إلى جمود فى الحياة ، وعجز عن الابتكار والتغيير اللذين هما أساس بناء الحضارة ، فلو جمد الناس على صورة واحدة ، وحاربوا التغيير ، وأجهضوا كل ابتكار فكرى ، ما وجدت الحضارة على وجه الأرض ، ولأصبحت حياة الإنسان على هذه الأرض شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عما نعيشه ونتمتع به الآن . فالاختلاف الفكرى سنة الله فى الأرض ، وهو لازم من لوازم الحياة البشرية ، وضرورة لاستمتاع الإنسان بما خلقه الله فى هذا الكون .

ومن هنا جاء الاختلاف فى العقيدة ؛ إذ هى تَصَوُّرٌ لما يمكن أن يعين الإنسان على مواجهة أخطار الطبيعة وتقلباتها ، وتَخَيُّلٌ للقوة التى تساعده عند الشدائد ، وتلهمه الطريق التى تؤدى به إلى النجاح ،

وتحفظه من الفشل . ولما كان التصور عملية فكرية ، تختلف قدرتها من إنسان لآخر ، وتتنوع عناصرها طبقاً لخصائص الشعوب الفكرية ، وأسلوبها فى الحياة ، ودرجتها على سلم الحضارة والرقى ، اختلفت صورة هذه القوة بين عبادة لقوى ترمز إليها الأشخاص والأحجار إلى تقديس للأرواح والأشخاص ...إلى ...إلى ...الخ حتى اهتدى أناس بتفكيرهم المتميز عن الآخرين ، وبملكاتهم الفكرية المتفرقة على أقرانهم إلى معبود واحد لا شريك له ، إذ لولا الاختلاف والتنوع فى مجال الفكر ، لظل الإنسان على عقيدته البدائية ، ولو لم يباشر الإنسان حقه فى حرية الفكر ، لظل أسيراً مكبلاً بترهات العقلية البدائية ، وتصورات الإنسان الأول ، حيث كان نشاطه مقيداً بكم كبير من الطقوس والتعاويذ ، فلا يقدم على عمل إلا باستشارة القوى الخفية التى كانت مسيطرة سيطرة تامة على عواطفه ووجدانه ، فهو خاضع فى كل حركاته وسكناته للأشباح والأرواح، توجهه فى أحلامه ورؤاه ، وتحدد له أسلوب حياته وطريقة معيشته ، يقول الأستاذ " نساو Nessau " : " كلما بدا للإفريقى شيء غير معتاد ، اتجه إلى الشعوذة ، أى إلى ماوراء الطبيعة ، لكى يجد له تفسيراً دون أن يبحث عن تفسير له فيما يسميه المتحضرون بالأسباب الطبيعية . والواقع أن عالم ماوراء الطبيعة هذا يعتبر عاملا فعالاً دائماً فى حياة البدائى . فنراه يلجأ إليه لتفسير كل ما يقع أمامه ، ويعزو إليه من الشرعية والمعقولية ما نعزوه نحن إلى قوى الطبيعة المعترف بها ". [1]

عاش الإنسان فى العصور الأولى تحت أوهام وخرافات حدت من انطلاق فكره ، وجمدت ملكاته الذهنية فى إطار نوع من التقاليد والعادات الدينية ، يعيش طبقاً لطقوسها ، ويتحرك حسبما تملى عليه من الدلائل والإشارات ؛ فقد انحصرت مدركاته العقلية فى استجلاء أفعال القوى الغيبية التى كان يشعر بأنها تحيط به من كل جانب. ومن طبائع هذه القوى – حسب اعتقاده – أنها لا تُرَى ، ولا تُدْرَك بالحواس، كما أنها لا تكشف عن نفسها إلا فى ظواهر قد تكون واضحة ، أو غير واضحة ، أو ضعيفة الدلالة ، كثيرة الورود أو قليلته. ومن هنا تعين على البدائيين أن يعرفوا : كيف يميزونها ! ويجمعونها ! ويفهمونها !. ومن الظواهر التى ساعدتهم على معرفة ما تريده منهم هذه القوى الغيبية :

---

[1]) بريل : ٢١-٢٢

الأحلام

إذ من المعروف أن العالم المرئى والعالم غير المرئى يكونان فى نظر العقلية البدائية عالماً واحداً، فالاتصال عندهم مستمر بين ما نسميه بالحقيقة الحسية وبين القوى الغيبية . ولكن هذا الاتصال لا يحصل بصورة أتم وأصرح إلا فى الأحلام ، حيث ينتقل المرء فيها من أحد العالمين إلى الآخر ذهاباً وإياباً دون أن يشعر. وهذا فى الواقع هو تصور البدائيين المعتاد للحلم: تترك الروح الجسم الذى تحل فيه مؤقتاً ، وتذهب فى بعض الأحيان بعيداً جداً لتتحدث مع الأرواح أو الأموات. وإذا ما استيقظ الشخص رجعت إليه وأخذت مكانها فى جسمه. لذلك إذا منعها سحر أو حادث آخر من دخوله ثانية فقد يصاب صاحبها بمرض يتبعه الموت. وفى بعض الأحيان تأتى أرواح الأموات نفسها، أو بعض القوى الأخرى لزيارة روح الحالم أثناء نومه.

وهكذا يعمل الحلم على مد البدائيين بمعلومات لا تقل قيمتها، بل قد تزيد، على قيمة المدركات التى يحصلون عليها أثناء اليقظة. وهم يقبلونها قبولهم للمدركات الأخرى دون أن يحتاجوا فى ذلك إلى الفلسفة الطبيعية التى يعزوها إليهم "تيلر Tylor " ومدرسته. ولكنهم ليسوا ضحايا خداع سيكولوجى فاضح كما يدعى البعض ، بل يعرفون جيداً كيف يميزون بين الحلم ومدركات اليقظة ، ويعلمون أنهم لا يحلمون إلا حين ينامون. غير أنهم يؤمنون إيماناً تاماً بأن الأحلام تضعهم فى علاقة مباشرة مع القوى التى لا تُرَى.

كتب " إلسدن بيست Elsdon Best " يقول : "قالت لى هذه السيدة العجوز ذات يوم : يمكننى الاعتقاد بكل سهولة أن الناس الذين يموتون فى سن الهرم يعودون إلى شبابهم فى " الرينجا Reinga " (عالم غير مرئى ، وهو مقر الأموات) ؛ فقد ذهبت إلى الرينجا فى الليلة الماضية (تعنى أنها حلمت) ورأيت فيها "كيريويرا Kiriuwera " (امرأة عجوز ماتت حديثاً) وكانت عليها سيماء الجمال والشباب الغض . وإذا قال أحد الأهالى بأنه كان فى "الرينجا" فإنه يعنى : إنه رأى حلماً . حكى لى رجل مسن يقول : كنت فى "الرينجا" فى الليلة الماضية ، ورأيت فيها صديقى العجوز الذى مات منذ زمن طويل .... وقد عرفت من هيئته أن الجو سيكون صحواً فى الغد . وقد لاحظ " كوليسو Koleso " الملاحظة نفسها حيث يقول : إنهم يعتقدون فى حقيقة الأحلام . ولديهم منها أنواع كثيرة ، منها الحسن ، ومنها السيء .... وهم مقتنعون بأن الأحلام عبارة عن ذكريات مارأوا فى "الرينجا" حيث تذهب الروح فى أثناء نوم الجسم .[٢]

---

[2] المصدر السابق : ٩٧ – ١٠٠

بل إنهم كانوا يعتبرون ما يرونه فى أحلامهم حقائق لا يتطرق إليها شك ؛ حدث فى إفريقيا الاستوائية أن رأى أحدهم فى المنام : أنه قام برحلة ، فاعتبر أنها وقعت بالفعل فى عالم الحقيقة ، فلبس الملابس الأوربية ، وجلس على باب عشته ، ولما سئل عن ذلك قال : إنه حلم فى الليلة الماضية أنه زار البرتغال وانجلترا وبعض الأقطار الأخرى ، ولذلك لبس الملابس الأوربية بمجرد أن استيقظ من نومه ، وقال لرعاياه : إنه آت من بلاد البيض وكان على من يأتون لرؤيته من شيب وشبان أن يصافحوه مهنئين بسلامة العودة.[3]

وقد سجل العلماء والباحثون كثيراً من هذه الروايات التى توضح أن الإنسان البدائى لم يكن حراً فى حياته ، بل كان مقيداً بتعاليم القوى الغيبية ، التى كانت تأتيه عن طريق الطقوس التى فرضتها عليه عادات المجتمع وتقاليده . ولم يكن أحد يستطيع الخروج عما تعارف عليه القوم ، وخاصة ما كان متعلقاً بالقوى الغيبية ، لأنها تسيطر على حياة المجتمع ، وتوجه أفراده إلى ما تحب وترضى ، فلا حرية له فى الصيد والقنص ، بل يتبع ما تمليه عليه هذه القوى الغيبية ، ولا إرادة له فى مأكل أو مشرب ، بل يتناول ما تسمح له به مما حوله ، بل طريقة حركاته وسكناته ، وأسلوب اتصاله بمن حوله ، بما فيها قيامه بواجباته الزوجية مبرمج سلفاً ، أو يوجه آنياً عند الطلب من ظواهر ومدركات أملته عليه هذه القوة ، حيث سلم نفسه لإرادتها وتوجيهاتها .

ومن يطلع على ما جمعه الرحالة والباحثون عن طبيعة حياة الإنسان البدائى ، لا يجد لهذا الإنسان ذرة من حرية ، فلا إرادة له ، بل هو خاضع خضوعاً كلياً لمعبوده ، وليس من حقه أن يفعل ما يحب ، بل هو مضطر لتنفيذ توجيهات القوى المتسلطة عليه ، ولم يستطع أحد الفكاك من هذه القيود ، اللهم إلا بضعة أفراد ، هداهم تفكيرهم إلى إظهار نوع من التمرد على هذه المعتقدات ، وتحملوا فى سبيل ذلك ألواناً من العذاب والاضطهاد ، اشتد عليهم أحياناً حتى أزهقت أرواحهم ، وسقط تحت وطأته كثير من أتباعهم.

وعلى الرغم من تحجر الأكثرية على المأثورات ، وعبوديتهم لها ، ودفاعهم المستميت عنها لدرجة قتل أبنائهم وذويهم إذا تمردوا عليها ، أو انتقدوا عوارها ، محاولين تصحيح ما عليه آباؤهم من ضلال جَمَّدَ حياتهم ، وسلب إرادتهم ، وعطل تفكيرهم ، فقد ظهر على امتداد التاريخ البشرى كوكبة من المفكرين ، دعوا إلى تصحيح مسار الفكر الإنسانى ، وجاهدوا فى سبيل تحرير الإنسان وتنويره فكرياًوعقدياً حتى نهضت الإنسانية من سباتها ، وتخلصت من قيودها ، فعرفت معنى الحرية ، وذاقت لذة التفكير فيما حولها ومن حولها، فأدركت أن العقل – ولا شيء غيره – هو محور الوجود ، فهو الذى يدرك الظواهر ويحللها ،

[3] المصدر السابق : ١٠٣

ويستنتج ما يساعده على التخطيط والتدبير لمسيرة الحياة ، بحيث يتمكن الإنسان من الاستمتاع بحياة على نحو يجنبه مسالك الهلاك ، ومهاوى الدمار ، ويبعده عن دروب العذاب والمعاناة ، سواء كان ذلك عاجلاً أو آجلاً.

كان على رأس المصلحين والمفكرين الذين قادوا مسيرة النهضة فى المجتمع الإنسانى :

الأنبياء والرسل

فقد دعوا إلى تحرير الإنسان من سلطة الكهنوت وترهاتهم ، التى كبلت حريته وشلت إرادته ، وحاصرته بسيل من المحرمات حتى أصبح سجيناً وسط كمٍّ هائل من النصوص التى حولته إلى دمية يحركها الكاهن كيف يشاء ، وفى أى اتجاه يريد ، وبذلك أصبح الإنسان عبداً لا يملك نفسه ؛ فالكاهن هو الذى يحدد له طعامه ، ويعين له شرابه ، وهو الذى يرسم له حركاته وسكناته ، حتى تدخل فى أكثر الأشياء خصوصية ، فبين له كيفية اتصاله بزوجته ، وأسلوب بناء بيته ، وترتيب أثاثه .... هاجم الأنبياء تعنت الكهان وتحجرهم على النصوص ، فعابوا عليهم تمسكهم باحترام النص ، وإهدار حق الإنسان فى الحياة الكريمة ، فلا قداسة لنص يسلب الإنسان حريته ، ويجرده من آدميته ، فالنص المقدس هو الذى يحفظ للإنسان كرامته ، ويسمح له بحرية الحركة ، واستخدام الإرادة النابعة من ذاته.

يهاجم أشعياء الكهنة قائلا :

" أَمَّا أَنْتُمْ فَتُدْعَوْنَ كَهَنَةَ الرَّبِّ تُسَمَّوْنَ خُدَّامَ إِلَهِنَا . تَأْكُلُونَ ثَرْوَةَ الأُمَمِ وَعَلَى مَجْدِهِمْ تَتَأَمَّرُونَ " [أشعياء ٦١ : ٦].

ويتهمهم حزقيال بأنهم خالفوا شريعة الله ، وخلطوا بين الحلال والحرام :

" كَهَنَتُهَا خَالَفُوا شَرِيعَتِي وَنَجَّسُوا أَقْدَاسِي . لَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْمُقَدَّسِ وَالْمُحَلَّلِ وَلَمْ يَعْلَمُوا الْفَرْقَ بَيْنَ النَّجِسِ وَالطَّاهِرِ ، وَحَجَبُوا عُيُونَهُمْ عَنْ سُبُوتِي فَتَدَنَّسْتُ فِي وَسْطِهِمْ " [حزقيال ٢٢ : ٢٦].

ويشبههم هوشع باللصوص ، حيث يقول :

" وَكَمَا يَكْمِنُ لُصُوصٌ لإِنْسَانٍ كَذَلِكَ زُمْرَةُ الْكَهَنَةِ فِي الطَّرِيقِ يَقْتُلُونَ نَحْوَ شَكِيمَ . إِنَّهُمْ قَدْ صَنَعُوا فَاحِشَةً " [هوشع ٦ : ٩].

كما جاء فى صفنيا أنهم نجسوا القدس بمخالفتهم للشريعة :

" كَهَنَتُهَا نَجَّسُوا الْقُدْسَ ، خَالَفُوا الشَّرِيعَةَ " [صفنيا ٣ : ٤].

فإذا تركنا العهد القديم وولينا وجهنا نحو الإنجيل لوجدنا أن أسلوب الكهنة واحد فى كل عصر : تقديس للنص على حساب حرية الإنسان ، وتكبيل لإرادة الإنسان بسيل من المحرمات اعتماداً على تأويل فاسد للنص ، أو روايات مدسوسة على صاحب الرسالة ، يحيط بها ويغلفها تهديد بالويل والثبور ، يصل إلى حد التكفير والخروج من رحمة الله لمن يتجرأ ، فيستخدم حريته فى التفكير ، استناداً إلى فهـــم للنص ، أو رجوعاً إلى المبادئ التى نادى بها صاحب الرسالة ، جاء فى إنجيل متى :

" فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ذَهَبَ يَسُوعُ فِي السَّبْتِ بَيْنَ الزُّرُوعِ . فَجَاعَ تَلامِيذُهُ وَابْتَدَأُوا يَقْطِفُونَ سَنَابِلَ وَيَأْكُلُونَ . فَالْفرِّيسيُّونَ لَمَّا نَظَرُوا قَالُوا لَهُ : هُوَ ذَا تَلامِيذُكَ يَفْعَلُونَ مَا لا يَحلُّ فِعْلُهُ فِي السَّبْت . فَقَالَ لَهُمْ : أَمَا قَرَأْتُمْ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ جَاعَ هُوَ وَالَّذينَ مَعَهُ . كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ الله وَأَكَلَ خُبْزَ التَّقْدمَة الَّذى لَمْ يَحلَّ أَكْلُهُ لَهُ وَلا للَّذينَ مَعَهُ بَلْ لِلْكَهَنَة فَقَطْ . أَوَ مَا قَرَأْتُمْ فِي التَّوْرَاة أَنَّ الْكَهَنَةَ فِي السَّبْت فِي الْهَيْكَلِ يُدَنِّسُونَ السَّبْتَ وَهُمْ أَبْرِيَاءُ . وَلَكنْ أَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ هَهُنَا أَعْظَمَ مِنَ الْهَيْكَلِ . فَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ . إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لا ذَبِيحَةً . لَمَا حَكَمْتُمْ عَلَى الأَبْرِيَاءِ . فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ " [متى ١٢ : ١-٨].

وفى إنجيل مرقس :

" وَاجْتَازَ فِي السَّبْتِ بَيْنَ الزُّرُوعِ . فَابْتَدَأَ تَلامِيذُهُ يَقْطِفُونَ السَّنَابِلَ وَهُمْ سَائِرُونَ . فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ : انْظُرْ لِمَاذَا يَفْعَلُونَ فِي السَّبْتِ مَا لا يَحِلُّ ؟ فَقَالَ لَهُمْ : أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ احْتَاجَ وَجَاعَ هُوَ وَالَّذِينَ مَعَهُ . كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ الله فِي أَيَّامِ أَبِيأَثَارَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَأَكَلَ خُبْزَ التَّقْدِمَةِ الَّذِى لا يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلاَّ لِلْكَهَنَةِ وَأَعْطَى الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَيْضاً . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ لا الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ ".[مرقس ٢ : ٢٣ – ٢٧] أى أن النصوص لخدمة الإنسان، وليس الإنسان عبداً للنصوص.[لوقا ٦ : ١-٥ ، يوحنا ٥ : ١٠ -١٨]

لكن تعاليم المسيح ﷺ اختفت بمرور الزمن وراء كم هائل من الروايات التى اعتمدها الكنيسة دون دليل قاطع على صحة نسبتها إلى عيسى ﷺ ، وتوارت القيم التى نادى بها بين التأويلات التى دعمت سلطة الكهنة على حساب حرية الإنسان وكرامته ، فكثرت المقدسات ، وتضخمت المحرمات حتى صار الدين قيداً يعرقل مسيرة الحياة ، ويعوق حركة التقدم والتطور ، فأصيبت المجتمعات بفيروس التخلف نتيجة للعقم الفكرى الذى أصاب الإنسان من جراء التعاليم الكهنوتية والمحرمات الكنسية .

حتى جاء محمد ﷺ برسالته الخالدة ، فأعلن أن الله كرم الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾. [سورة الأسراء : ٧٠]

ولا كرامة لإنسان مسلوب الإرادة ، لا يملك حرية التفكير والنظر إلى ما حوله بدافع من ذاته ، فالعبيد لا كرامة لهم ، كذلك لا قيمة لمن لم يملك حريته فى توجيه سلوكه وتعيين مسار حياته ، واختيار ما يقتنع به ، واعتناق ما يروق له من أفكار ومبادئ ، حتى الإيمان بالله لا يكون صحيحاً إلا إذا كان صادراً عن اقتناع . ولن يكون ذلك إلا إذا كان المرء حراً فى اتخاذ قراره . ولهذا رفع القلم عن المكرَه ، فلا التزام عليه فيما يقره تحت الضغط والتهديد ، فقد قال رسول الله ﷺ : "إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ". [4]

ولا يدرك الإنسان قيمة الحرية ، ومدى أهميتها فى حياته إلا إذا كان قادراً على فهم ذاته ، ومدركاً لدوره فى الحياة ، وملماً لنوعية العلاقة بينه وبين الآخرين ، سواء كان ذلك فى محيط أسرته ، أو فى ساحة الحياة مع أفراد مجتمعه القطرى ، أو القومى ، أو العالمى ، ومن هنا جاءت أول الآيات القرآنية تحثه على العلم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. [سورة العلق : ١ – ٥].

بل تدفعه إليه دفعاً حتى يكون مهيئاً لتوجيه الخطاب إليه ، ذلك الخطاب الذى يرسم له أسلوب حياته ، بما يشتمل عليه من حفظ الكرامة الإنسانية المتمثلة فى إعطائه حرية اتخاذ القرار ، بعد أن حصل على العلم الذى يمكنه من تصويب حياته بنفسه ، ودون ضغط أو إكراه من أحد .

فإذا أردنا ترتيب المبادئ الإسلامية حسب أهميتها ، نجد أن أول مبدأ أرساه الإسلام هو : الحث على التعليم والثقافة ، لأنهما مفتاح عالم الحرية للإنسان ، وآلية التخلص من وصاية الآخرين عليه ، مهما كان مركزهم الاجتماعى ، أو وضعهم الروحانى ... حتى الأنبياء ليس لهم سلطان على أحد ، يخول لهم إجباره على اعتناق ما لا يقتنع به ، ولهذا كان المبدأ الثانى فى رسالة محمد ﷺ : الاعتراف بحرية الإنسان ، حتى ولو ترتب على ذلك عدم الاعتراف برسالته ، فخطاب الرسول ﷺ للناس كان أساسه عرض الدعوة فقط ،

---

[4] ابن ماجة

دون إكراههم عليها ، يقول تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾. [سورة البقرة : ٢٥٦] ، ويقول :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ .

[سورة يونس : ٩٩]

فلو انتشر التعليم فى المجتمع ، تمسك أفراده بحريتهم ، فلا يقبلون ضيماً ، ولا يقرون استعباداً ، ولا يرضون بذل أو مهانة تحط من قدرهم ، بل إن العلم والحرية دعامتان يقوم عليهما الرخاء والهناء فى الحياة المادية ، ويرتكز عليهما أسس الاستقرار فى المجتمع فيسود الأمن والطمأنينة بين جنباته ، وترفرف أعلام الازدهار والتقدم فى كل مؤسساته ، سواء كانت سياسية ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، لأن المتعلم إذا كان مسلوب الحرية ، دفنت ملكاته بين ضلوعه ، وضاعت مواهبه فى سراديب ظلام العبودية ، وخبت نور علمه، وسط ضباب الاضطهاد والجمود الفكرى ، بل إن من لا حرية له ، لا يملك أدوات تحصيل العلم ، اللهم إلا ترديد ما يمليه عليه الطغاة ، فيردد نصوصاً لا تسمن ولا تغنى من جوع ، كذلك الحرية بدون علم كارثة ، فكثير من كوارث الإنسانية كان أساسها جاهل وضعته الظروف فى موقع لا يسأل فيه عما يفعل ، فعاث فى الأرض فساداً بجهله وجبروته .

يدعو الإسلام إلى العلم ، لأنه مفتاح التقدم والازدهار ، ويقدس حرية الإنسان كى يصون كرامته ، ويحمى إرادته ، ليصبح قادراً على توظيف علمه وثقافته لخدمة نفسه ومجتمعه ، فيختار ما يقتنع به ويرضى عنه ، ويبنى حياته دون ضغط أو إكراه ، ومن كان هذا شأنه :

- استقام أسلوبه فى العمل ، فلاتخاذل ولا تكاسل ، ولا إهمال ولا تهاون ، بل جد ومثابرة ، وإتقان وإبداع .
- واستوى سلوكه مع نفسه ، وحَسُن تعامله مع الآخرين ، فلا نفاق ، لأن بذرة النفاق تنبت فى مجال انعدام الحرية ، وهو يتمتع بها ، وتزدهر فى محيط الخوف والرعب ، وهو لا يخاف أحداً ، إلا الله ، لأنه تسلح بالعلم ، وتحصن بالحرية فى جميع مجالات حياته ، فهو حرٌّ فى اختيار عقيدته ، وصاحب إرادة فى سلوكه ، ويتمتع بحرية التعبير عما يميل إليه فى ظواهر المجتمع ومشكلاته.

على هذا المنهج تربى المسلمون الأول ، فكانوا من أحسن العناصر التى كونت المجتمع الإسلامى الأول، عبروا عن آرائهم حتى ولو كان مخالفا لرأى رسول الله ﷺ فيما يتعلق بشئون الحياة ؛ فقد روى أن الحباب بن منذر بن الجموح اعترض على ما ارتآه الرسول ﷺ فى منازل الجيش فى غزوة بدر ، فقال :

يارسول الله ! أرأيت هذا المترل ، أمترل أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخره ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فرد عليه الرسول ﷺ بأنه الرأى والحرب والمكيدة ، فقال الحباب : يا رسول الله ! هذا ليس بمترل ، فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فتترله ، ثم تغور ما وراءه من القلب ، ثم تبنى حوضاً فتملؤه ماءً ، ثم تقابل القوم ، فنشرب ولا يشربون . فاختار الرسول ﷺ ذلك المترل ، وأخذ برأى الحباب بن منذر ، ونفذه كاملاً .

كذلك اعترضت امرأة على فتياه ﷺ حين اشتكت إليه أن زوجها قد ظاهرها ، فقال لها : قد حرمت عليه ، فجادلته ، وحاورته ، فترل قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ [سورة المجادلة : ١].

كان التعبير عن الرأى بحرية معلماً من معالم المجتمع الإسلامى ، وسمة من سماته الأصلية ، يشهد على ذلك ما نراه فى كتب التراث من آراء متعددة فى المسألة الواحدة ، واتجاهات تكاد تكون متعامدة فى تعاليم الإسلام وشرائعه ، ابتداءً من الأمور التى تتعلق بمصالح العباد مروراً بالعبادات...... حتى مبادئ العقيدة نفسها ، اختلف فى تفسيرها وتأويلها أكابر العلماء ومؤسسو المذاهب العقدية والفقهية .

تقبل المجتمع هذه الظاهرة وتعامل معها بفكر وروية ، فاختار كلٌّ ما يروق له من الآراء ويطمئن إليه، ودافع أصحاب الآراء عن آرائهم بالحجج والأسانيد ، ودحض أدلة المخالفين وتأويلاتهم ، دون أن يُكَفِّرَ أَحَدٌ الآخَرَ – إلا ما ندر – ؛ إذ كان الطابع العام هو مناقشة الحجة بالحجة ، ودعم الرأى بالأسانيد والأدلة ، ومن خرج عن ذلك إلى الطعن والتكفير ، طواه التاريخ ، وأهملته ذاكرة الأمة ، فلم يترسب فى ذاكرتها إلا من أسس مذهبه على أدلة واضحة ، وتحاور مع الآخرين باحترام وأدب ، وسادت مناقشة العلماء المقولة الشهيرة : "رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب " ودعا الشافعى – رحمه الله – إلى عدم التعصب للرأى بقوله : " إذا صح الحديث فاضربوا بمذهبى عرض الحائط ".

كانت هذه هى الروح العلمية السائدة – باستثناء حالات هنا وهناك – فى المجتمع الإسلامى الأول:

- تحصيل العلم هو القيمة العليا فى المجتمع .
- تسانده وتؤازره ، وتنميه وترعاه : حرية التعبير .
- ويحميه ، ويزود عنه ، ويحافظ عليه : احترام الرأى الآخر ، والدفاع عن حرية الآخرين فى التعبير عن آرائهم ، مهما اختلف المرء معهم.

وبذلك شيد المسلمون صرحاً حضارياً ظل مفخرةً لهم على امتداد التاريخ حتى اليوم ... فحين يحس المسلم بالمهانة يتذكر ما بناه أسلافه فى جميع مجالات الحياة ، ويظل يجتر تاريخ أجداده دون كلل أو ملل ، لأنه يجد فى ذلك راحة نفسية ، ويشعر بنوع من إثبات الذات بين العمالقة فى المجتمع المعاصر .

لم يخفت نور الحضارة الإسلامية ، ويتلاشى بهاؤها وضياؤها إلا عندما اختفت هاتان الظاهرتان من المجتمع الإسلامى ، حيث أصبح تحصيل العلم تكراراً لما قاله السابقون ، واجتراراً لما تركه الأولون . وليت الأمر اقتصر على ترديد كل ما أنتجه الأُوَل من أفكار ونظريات، بل اقتصر على التمسك بآراء لم يكن لها صدى فى المجتمع الإسلامى الأوّل ؛ إذ كانت ضعيفة ، ولا يمثلها سوى حفنة صغيرة ممن استغلق فهمهم ، وجمدت قرائحهم . وكان وجود مثل هذه الآراء بين الاتجاهات الفكرية التى قادت الأمة إلى بناء نهضتها وحضارتها ، علامةً على حرية الفكر ، ودليلاً على سيادة مبدأ احترام حرية الآخرين فى التعبير عن أفكارهم، حتى ولو لم يكن لها سند يقويها ، وذلك هو المناخ الذى يؤهل الأمة – أية أمة ، مهما كانت عقيدتها – لأن تتبوأ مكاناً مناسباً فى صفحات التاريخ ، بما تهيئه لها هذه الحرية الفكرية من قدرة على البناء والتشييد فى مجالات الحياة .

لو اقتصر ترديد الأمة على كل ما كان موجوداً على الساحة الفكرية ، لوجدنا من بينها ما يدفعنا إلى الأمام ، حتى ولو كان التحرك إلى الهدف بطيئاً ، ولكن للأسف الشديد ، ردد العلماء آراءً ضعيفة ، واجتروا مفاهيم ليس لها من القوة ما يساعد الأمة على الاستمرار فى نهضتها ، فتوقفت حركتها ، بل تراجعت ، حتى سقطت فى هاوية التخلف :

- فألفت التحجر على الأفكار الضعيفة ، رافضة محاولات الفهم لقضايا العصر والاجتهاد فى تأويل النصوص لدفع المسيرة إلى الأمام .
- ورفضت كل ما هو جديد دون النظر فيه ، أو الالتفات إلى أهميته فى دفع مسيرة الحياة إلى الأمام .
- رفضته بحجة أنه بدعة اعتماداً على موروث مشكوك فى صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ .
- ونقبت فى ثنايا الذات عن كل ما يدعو إلى التقوقع على الذات ، ويدعم الانكفاء إلى الوراء ، ويؤيد الداعين إلى غلق كل نوافذ الثقافة ، بحيث لا يتسرب منها إلى داخل المجتمع الإسلامى أى شعاع ، يأخذ بيد المسلمين إلى التقدم والازدهار .

وفى سبيل الدفاع عن هذا الاتجاه جردوا كل أسلحتهم لقمع كل من يخالفهم الرأى . أو يحاول إلقاء الضوء على جوانب مضيئة فى التراث ، تهدد مواقعهم . وتزعزع وضعهم فى المجتمع كمتحدثين باسم الإسلام. ولما كانت بضاعتهم الفكرية لا تقوى على الصمود أمام الفكر المستنير – الذى يدعو إلى فتح باب الاجتهاد ، فيفحص التراث ، ليأخذ منه ما يلائم عصره ، فإن لم يجد استخدم عقله فى فهم النصوص : معرضاً عن الآراء الضعيفة . داعياً إلى مراعاة ربط فهم السلف للنص بملابسات الحدث ، ووضعه فى إطاره التاريخى – استخدموا سلاح التكفير ضد كل من يخالفهم ، حتى ولو كان موضوع الخلاف لا يتجاوز مرتبة السنة ، أو يخرج عن دائرة المحسنات ، أى أنه ليس فرضاً ، ولا سنة مؤكدة .

وليس اتهام المخالفين لهم قاصراً على محدودى الثقافة منهم ، بل سمة عامة فى صفوفهم ، اتخذوه سلاحاً ضد كل من يعارضهم ، خوفاً على ضياع هيبتهم أمام العامة ، ودفاعاً عن مراكزهم الاجتماعية ، ووضعهم الاقتصادى ، ولذا رأينا قادتهم ، وأولو الرأى منهم يكفرون من يختلف معهم فى الرأى ، ويهددونهم بقطع أرزاقهم ، كلما كان ذلك متاحاً لهم ؛ فقد حضرت ندوة فى إحدى جامعات دول الخليج ، اشتد فيها النقاش بين أحد رموز الجماعات الإسلامية "الكبار" وبين أستاذ جامعى ، خرج من صفوف جماعتهم ، لأنه رآى فيها اعوجاجاً عن طريق الإسلام ، ولحظ فى تصرفات أعضائها ما يخالف تعاليم الإسلام ، مما جعله يقارن بين أقوالهم وأفعالهم ، فتوصل من هذه المقارنة إلى أنهم لا يلتزمون بالإسلام ، كما يدعون إلا بمقدار ما يخدم مصالحهم ، ويحافظ على وضعهم الاقتصادى .

اشتد النقاش بين هذا الأستاذ الجامعى وبين "قطب" الجماعة الإسلامية ، حتى حصره الأستاذ بالأدلة القرآنية التى تدحض ما ذهب إليه هذا الذى يطلقون عليه لقب "المفكر الإسلامى الكبير" ، فلما لم يجد مفراً، أطلق وعيده وتهديده ، وكان مما قاله : "إن من يقول بهذا الرأى ليس له مكان فى كليتنا ".

ومن الغريب أنه يدلى فى كثير من المناسبات أنه رجل عصرى ، يفهم الإسلام بروح العصر . ويدعو إليه بأسلوب يتفق مع معطيات المجتمع المعاصر ... قد يكون ذلك فى بعض مواقفه التى لا تمس وضعه الاقتصادى ، أو فى حالات يريد أن يظهر فيها أمام محدثيه ، أنه ليس متزمتاً ، أو أنه يفهم من علوم العصر مالا يدركه أقرانه . فليست هذه المواقف "الموسمية" سمة عامة لديه ، بل هى ومضات ، لا تلبس أن تختفى وراء تكوينه الثقافى ، وأسلوبه الذى تربى عليه بين صفوف هذه الجماعات ، ناهيك عن أن أسلوبه فى التهديد لا يقره الإسلام ، أين ما فعله مع هذا الأستاذ فيما بعد (استعدى عليه جهات الأمن فى هذا البلد ، حين أعيته الحيلة مع إدارة الجامعة ، حتى استصدر قراراً أمنياً بإنهاء عقده) مما كان يفعله الرسول ﷺ مع

أصحابه ، وحتى مع أعدائه ، ألم يقرأ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة المائدة : ٨] .

إن تقديس آراء السابقين مخالف لـــروح الإسلام وتعاليمـــه ، ومناقض لما أُثِرَ عن الرسول ﷺ من حث المسلمين على الاجتهاد فى فهم النصوص ، ومتعارض مع أهم مبدأ قامت عليه الحضارة الإسلامية التى يتغنون بها حتى الآن ، ألا وهو حـــرية الرأى واحترام رأى المعارضين ؛ إذ لولم يوجد هذا المبدأ فى المجتمع الإسلامى ما قامت لهذه الحضارة قائمة ، ولا شاهدنا تلك الإنجازات التى يفخر بها المسلمون أمام شعوب العالم ؛ فلا قيام لحضارة فى جو الإرهاب الفكرى ، ولا مكان للتقدم والرقى إلا إذا تصارعت الأفكار ، وتدافعت الرؤى المختلفة فى ساحات العمل ، وتنافست قوى الإبداع فى مجالات الفن والابتكار ، وهذا ما هيأه الإسلام للمسلمين الأول ، بإرسائه لمبدأ الحرية فى جميع مجالات الحياة ، لا يحد منها إلا ما اتفق الجمهور على ضرورة الالتزام به ، ولا يقيدها إلا ما كان لازماً لسلامة المجتمع . مبدأ إسلامى عام : "لاإكراه" ، حتى ولو ترتب عليه عدم الإيمان به ، فالإنسان حر فيما يعتقد ، وفيما يعمل ، وفيما يحب ، لا يحد من حريته إلا النظام العام للحياة ، فلا ضرر ، ولا ضرار ، وما عدا ذلك فهو حر حرية كاملة .

أما ما ينادى به من يتصدرون قوافل الدعوة الإسلامية من وجوب الاتباع لرأى معين دون غيره من الآراء فهو مخالف لتعاليم الإسلام ، بل هو ارتداد إلى ما كان يمارسه الكهنة ورجال الدين قبل الإسلام من تأويل للنصوص المقدسة تأويلاً يجعل المؤمنين أداة طيعة فى أيديهم يوجهونهم حيث يشاءون ، تارة بالإرهاب والتخويف ، وأخرى بإيهامهم أن أمل النجاة منحصر فى طاعة أوامرهم ، وتنفيذ ما يُطلب منهم بصرف النظر عما يُخلِّف هذا العمل من آثار ، فهم فى طاعة الله ماداموا فى طاعة هذا الكاهن ؛ لأنه أوهمهم أنه لايتكلم إلا باسم الله ، ولا يأمرهم إلا بناءً على وحى الله المنزل على رسله ، فإذا اعترض بعض المؤمنين على بعض آرائهم رموه بالكفر والزندقة ، وطردوه ــ طبقا لما يدعيه هؤلاء الكهنة ــ من رحمة الله .

أليس مانشاهده اليوم على الساحة الإسلامية من فرض الرأى بالقوة، ومحاربة المخالفين فى أرزاقهم ، ورميهم بالكفر والزندقة هو بعينه ما كان يفعله الكهنة ورجال الدين قبل الإسلام ؟

ألا يعتبر تخويف الإنسان من كل مايحيط به ، وتكبيله بطقوس فى كل حركاته وسكناته – حتى أصبح عبداً لأساطير وخرافات لاتمت إلى الإسلام بصلة – إلى أن صار عاجزاً عن الإبداع والابتكار ، ومُعَوَّقاً فى كل مجالات المنافسة الحضارية المعاصرة، مما جعله أشبه بالإنسان البدائى التى حاصرته تعاليم السحرة والكهنة ، فمسخته دمية فى يد من يَدَّعى أنه يملك أسرار ماحوله ....؟

ألا يعتبر هذا ردة إلى وضع الإنسان فى العصور الأولى الذى جاءته الأديان لتخلصه منها ؟

جاءت الرسالات السماوية لتحرر الإنسان من الخرافات والأساطير ، ولترد إليه كيانه وذاته؛ فمنحته الحرية فى التعبير والاعتقاد حتى يتمكن من الوصول إلى مايسعده فى الدنيا والآخرة .... وكان كلما مر الزمن وغيَّر الكهان ورجال الدين ماخلفه الأنبياء ليُحْكِموا سيطرتهم على الناس...... أرسل الله نبياً آخر ليحرر الناس مما أوهمهم به الكهان .... حتى جاء محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة ، وحفظها الله فى قرآنه المجيد الذى لم يستطع رجال الدين أن يغيروا شيئاً من نصوصه ، فالتفوا حوله بتأويلات وتفسيرات، وطمسوا معالمه بمأثورات لاسند لها، وجمَّدوا مبادئه بمرويات عن علماء اجتهدوا لمواجهة متطلبات عصرهم ، ونسوا أوتناسوا أن مفهوم صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان أنه جاء بمبادئ عامة – فى كثير من تعاليمه – تستطيع كل المجتمعات أن تلتزم بها دون أن تنسلخ عن إطارها التاريخى ، ومقتضيات بيئتها المحلية .

ومن يفهم غير ذلك فإنه يجمد مبادئ الإسلام فى ثلاجة التاريخ ، ويريد أن يَرُدَّ الإنسان إلى العصور البدائية ، حيث كان الإنسان مسلوب الإرادة من كثرة القيود التى وضعها الكهان على عاتقه .

ولهذا كله رأيت أن أبحث فى مجال العقيدة – نشأتها ، وتطورها – كى أبين كثيراً مما يدور فى مجتمعنا حولها ، ولأوضح الخطوط المتشابكة بين ما خرج من منابعها الأصلية – إنسانية أرضية ، أو إلهية سماوية – ، وما طرأ عليها من أفكار ، سواء كانت أفكاراً بدائية ، أم تعاليم إلهية ، وقسمت ذلك إلى عدة بحوث ، دارت كلها فى إطار علم الأديان.

والله أسأل أن يكون لذلك أثر فى تصحيح الفكر حول المصطلحات التى تتردد فى مجتمعنا ، وتقويم للاتجاهات التى تشتت أفكار الإنسان ، وتطمس فطرته التى فطره الله عليها .

محمد عبد الغنى شامة